(١٤)

مقاومة

لا عنف (١) فيها ولا حدة ؛ ولا بأس فيها ولا شدة ، ولكنها هادئة مطمئنة ، يخيل إلى كثير من الناس أنها استسلام وإذعان ، فإذا بلوها وجدوها مرة ، وإذا اختبروها وجدوها صلبة ، وإذا سلطوا عليها ما يملكون من قوة ، لم يبلغوا منها شيئاً . وإذا ابتسامات هذه المقاومة الهادئة ليست مظهراً من مظاهر الضعف ، ولا لونا من ألوان الرضى ، ولا أسلوبا من أساليب الإذعان ؛ وإنما هى سخرية لاذعة ممضة ، تغر وتغرى حتى إذا دنا منها الطامع فيها ، والمزدرى لها وجد عندها السم الزعاف فارتد عنها مفلول الحد ، مقطوع الرجاء .

ما أجمل هذا الهدوء الهادىء الذى يحسبه المستعمرون ذلة فإذا هو العزة كل العزة ، ويراه الطامعون إذعانا فإذا هو الإباء كل الإباء ، وإذا هو الدليل الواضح والبرهان القاطع على أن الثورة ليست فى العنف وحده ، ولا فى الشدة وحدها ، ولا فى هذا الاضطراب الذى يفسد له النظام ، وتقترف فيه الآثام ، ويذهب فيه الأخيار الأبرياء فداء للأشرار الآثمين. وإنما هى قد تكون دعة وأمنا واطمئنانا ، يدور حولها العدو فلا يصل إليها ، ولا يستطيع أن يدنو منها حتى إذا جد الجد تبين أن قد أنفق جهده فى غير طائل ، وأضاع وقته فى غير غناء .

ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بهذه الابتسامات الساخرة التى ترتسم على ثغور بعض الأفراد هازئة بالحوادث ، مزدرية للخطوب ! ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بابتسامات الأفراد هذه ، فأبدعوا وأجادوا ، وأظهروا للناس آيات فنية خالدة ، وما أخلقهم أن ينظروا

---

(١) ١٩٣٣/٣/٢٥ عدد ٢٣٤٤

إلى ابتسامات أخرى ساخرة هى أروع من تلك الابتسامات وأجمل ، وهى أشد منها وقعا فى القلوب ، وأبعد منها أثرا فى النفوس ، لأنها ابتسامات تترجم عن سخرية الشعب من قوة الأقوياء ، وازدراء الأمم لسلطان المتجبرين .

فى هذه الابتسامات الشعبية جمال الصبر والجلد ، وجمال العزة والشمم ، وجمال الثقة والأمل . وفيها فوق هذا كله وبعد هذا كله جمال التضامن الصادق ، والتعاون الذى لا يجد الضعف ولا الفشل سبيلا إليه .

ما أجدر الشعراء وأصحاب الفن أن يصوروا سخرية الشعوب هذه ، وما أجدر المتسلطين والذين يريدون أن يكرهوا الأمم على ما لا تحب ، ويأخذوها بما لا ترضى أن ينظروا هم أيضاً إلى هذه الابتسامات فلعلها أن تثير فى نفوسهم العظة ، ولعلها أن تملأ قلوبهم بالعبرة ، ولعلها أن تقنعهم بأن إذلال الأفراد قد يكون ميسوراً ، ولكن إذلال الأمم شىء لا يطمع فيه .

فمن الحمق أن ينفق فيه الجهد ، ويضاع فيه الوقت ، ويضحى فيه الساسة بذكائهم وكفايتهم ، وما يطمعون فيه من حسن الأحدوثة وبعد الصيت .

ما أجمل هذه الابتسامات وقد ارتسمت على ثغر مصر منذ نهض رئيس الوزراء بأعباء الحكم ، فما زالت مرتسمة على هذا الثغر ، لم تفارقه ولم تتحول عنه ، ولم يشبها عبوس ، ولم يغير من صفائها وجمالها تقطيب ولا شحوب .

لقد نظرت مصر إلى صدقى باشا حين ألف وزارته ففهمت ما كان يريد ، فابتسمت له شفقة عليه ، تعظه وتحذره ، ولكنه أخطأ فهم هذه الابتسامة ، فلم ير فيها وعظا ولا نصحا ولا نذيرا ، وإنما رأى فيها رضى وتشجيعا وتسليما . فمضى فى سبيله يشتد ويسرف فى الشدة ،

ويغير ويغلو فى التغيير ، ويبدل ويمعن فى التبديل . وهو كلما مضى فى طريقه شوطا ، نظر إلى مصر فرأى ابتسامة الإشفاق والنذير ، ولم يفهم منها إلا الإذعان والتسليم فيستجمع قواه ، ويمضى أمامه مشتدا ملحا ، وإذا قواه تسلط على البرلمان فيحل ، وعلى الدستور فيغير . ثم على الأفراد والجماعات فيؤخذ بعضها بالرغبة ، وبعضها بالرهبة . ثم على المصالح العامة كلها فيسرى فيها الفساد كما تسرى العلة فى جسم الرجل الصحيح ، ثم على السياسة الخارجية بيننا وبين الانجليز ، وبيننا وبين غير الانجليز من الأمم ، فإذا هى مزاج غريب ، ظاهره العزة التى لا تخدع أحدا ، وباطنه التسليم والانخذال ، وهو كلما مضى أمامه شوطا أو أشواطا نظر مصر فرأى هذه الابتسامة المشفقة الساخرة ، ولم يفهم منها إشفاقا ولا سخرية حتى يبلغ به الجهد أقصاه ، وينتهى به الإعياء إلى غايته ، هنالك وهنالك فحسب يبدو له ، — ولكن بعد فوات الوقت وضياع الجهد — أنه قد غره بأمته الغرور ، فأصغر من شأنها وهو كبير ، وحقر من أمرها وهو عظيم ، وظنها راضية وهى ساخطة ، وحسبها مذعنة وهى شديدة الإباء . هنالك وهنالك فحسب نظر أمامه فلم ير إلا جهدا قد أنفق عبثا ، وقوة قد ذهبت هباء . والتفت عن يمينه وعن شماله فلم ير لنفسه مخرجا من هذا المأزق السياسى الحرج الذى ورط نفسه فيه ، فوقف حيث أراد الله أن يقف ، لا يستطيع أن يتقدم لأن الطريق أمامه مغلقة ، ولا يستطيع أن يتأخر لأن السبيل وراءه مقطوعة . فهو حائر لا يدرى ماذا يصنع ولا يعرف كيف يقول . وأصدقاؤه الذين ظاهروه وناصروه ، وأولياؤه الذين عقدوا به الآمال ، وناطوا به الأمانى ، ينظرون إليه ويقبلون عليه ، ويطيفون به ، وهم يسألونه : ماذا صنعت؟ وإلى أين انتهيت ؟ أين تلك الآمال الواسعة والأمانى العريضة ؟ أين أنت وأين نحن من تحقيق الأمل وتصديق الظن وإنزال هذه الأمة عندما تريد ؟

نعم يسألونه فلا يجد لهم جوابا ، ويلحون عليه فى السؤال فيلح هو فى الصمت ، فيطرقون كما أطرق ، ويسكتون كما سكت ، وتأخذهم

الحيرة كما أخذته . والأمة المصرية هادئة وادعة ، ومطمئنة ساكنة ، وعلى ثغرها هذه الابتسامة الحلوة الواضحة التى لم يبق شك ولا ريب فيما تريد أن تدل عليه .

ماذا ؟ أبعد ثلاثة أعوام لا تشرق الشمس فيها إلا على قوة مسلطة ، ولا تغرب الشمس إلا على مكر مدبر ، وكيد مهيأ ، تظل الأمة كما كانت يوم نهض رئيس الوزراء ليبدل حياة بحياة ، ونظاما بنظام .

ماذا ؟ لقد كان الزعماء أول الأمر يهمون بالكلام فيؤخذون بالصمت ، وبالحركة فيضطرون إلى السكون ، وبالسفر فيردون إلى بيوتهم . وكان يقال : بقية من فوضى يجب أن يمحوها الحزم ، وفضل من اضطراب يجب أن يزيله النظام . ويمضى عام وبقية الفوضى ما زالت قائمة . ويمضى عام آخر وفضل الاضطراب ما زال قائما . ويشرف العام الثالث على غايته والأمر كما كان فى الساعة الأولى.لا ينبغى أن يتكلم الزعماء ، ولا أن يتحركوا ، ولا أن يسافروا لأن الأمة ما زالت لهم محبة ، وبهم واثقة ، وحولهم ملتفة ، ولدعائهم مستجيبة . وإذن ففيم بذلت القوى ، وفيم أنفقت الجهود ، وفيم بعثرت الأموال ؟ فيم ألغى نظام وأقيم مكانه نظام آخر ؟ فيم حل برلمان وأقيم مكانه برلمان آخر ؟ فيم سلطت الرغبة والرهبة على الأفراد والجماعات ؟ فيم رقعت الوزارة ورقعت ؟ فيم بسطت أيدى المديرين على الناس بما يباح وما لا يباح ؟ فيم أضاع رئيس الوزراء صحته وخضع لسلطان الأطباء ؟ فيم هذا كله ما دام الرئيس(١) الجليل لا يستطيع أن ينتقل إلا التفت حوله الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة؟ولا يستطيع أن يتكلم إلا خفقت له القلوب كلها كأول يوم ألفت الوزارة ، ولا يستطيع أن يدعو إلا استجابت له الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة ؟ وإذن ففيم كان كل هذا الجهد وفيم ضحى بكل هذا الوقت ؟

---

(١) المراد زعيم الوفد .

سؤال لا يجد عند رئيس الوزراء له جوابا ؛ وإنما تجد جوابه واضحا جليا ؛ لذاعا مخيبا للآمال فى هذه الابتسامه الحلوة المرة ؛ الراضية الساخطة معا ؛ المطيعة المويئسة معا .

هذا رئيس الوفد وصاحبه لم يكد يمتد بهما السفر حتى عجزت الحكومة عن أن تحتمل حب الأمة لهما والتفافها حولهما ، فإذا هى تردهما كارهين فى قطار تحميه الشرطة أو تحميه الجيش أو تحميانه معا كعهدهما حين كانا يحاولان السفر فى العام الأول من أعوام هذه الوزارة .

وما أحبت الأمة رئيس الوفد ولا صاحبه افتتانا بشخصيهما ، وهياما بهما . فهما مثلك ومثلى . ولكن الأمة ترى فيهما مبدأها الذى أقسمت لتبلغنه ، ومثلها الأعلى الذى أقسمت لتنتهين إليه .

هلم إذن يا صاحب الدولة فاجمع من شئت من جنود الشرطة وجنود الجيش ، واردد رئيس الوفد وصاحبه إلى القاهرة ، وضع كلا منهما فى بيته وغلق على كل منهما الأبواب ، وأقم دون كل منهما الحجاب ، وأفعل مثل ذلك بغيرهما من الزعماء ، فلن تبلغ بهذا كله فوق ما بلغت ، وماذا بلغت ؟ وأين تجد القوة على استئناف الجهاد ؟ أحركة يأس هى أم حركة رجاء ؟

فما أكثر ما تعبث الآمال بالنفوس ، وما أكثر ما يعجز الناس عن فهم العبر والعظات وإن تكن حركة يأس فما أصدق الشاعر القديم حين قال :

ربما تكره النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال

أما أنت أيها البلد العزيز الأبى فاحتفظ بابتسامتك الحلوة المرة ، فليس أشد منها غيظا لحوادث الدهر ، ولا استهزاء بالمحن والخطوب .